علي المكي

وهل أبصرَ أعمى المعرّة

الدار السودانية

على (لمن

وهل أبصر العمى المعرة

الدار السودانية

الغلاف والرسومات الداخلية
كمالا ابراهيم اسحق

الطبعة الأولى
١٩٧٤

الإهداء

أقدم لك هذا باسمه : الحب .

لأنه رغم انفصام الصلات مازال سيـــدنا ومولانا والمتحـكم في مصيرنا . فان عـدتِ فاعلمي أن المـزارع مازالت في شوقهاالقديم اليك ، والقمر سأل عنكالبارحة وإلا أصبحنا كالديدان في زمان الديدان .

آه .. لو عندي بساط الريح

ياقاطع الأخشاب

خلصني من العذاب
عذاب أن أرى نفسي
بلا ثمار ..

(ف . فارسيا لوركا)

ما الذي كان سيحدث لو كنت رسامـــاً ، أعرف الألوان وخصائصها ومشتقاتها ، وأعرض لوحـاتي على الناس ، وأضجرهم بما أحس وأشعر ، كان (وليـــام بليك) الشاعر فناناً يرسم ، وكذا كان شـاعر لبنان جبران ، وأنا لست مثل هذا ولا ذاك ، ولست قريبـا من فكر هذا ولا ذاك ، غير أن حمى الكتابة وسعرهـا أدركاني من سنين بعيدة خلت ، واني ـ الى جانب هذا كله ـ أتمنى لو أني كنت رساماً بالفحـــم أو بالزيت أو باي شيء ..

جعلت أخطط رسوماً على الورق أمـامي ، حتى الخط المستقيم لم يعد خطاً مستقيماً ، فاذابيمناي ترتجف هذه وجوه أناس أعرفهم ولا أعرفهم .. كلهم متجهون الى غير ماهدف . أحياناً أنسى أن أصور لهـم عيونا ، وقد أنسى أن أصور لهم آذاناً تسمع .. لماذا لأني لاأريد لهم ـ وأنا صانعهم ـ أن ينظروا الى ماأنظر أويسترقوا السمع لما أستمع ، وعلى كل فهناك أشياء تميز هذه الوجوه فهي مسطحة أنوفها فطساء ، شفاهها غليظة ، شعرهـا خشن ، وانها جميعاً وبلا استثناء عابسة ، دائمة العبوس فقد اكتشفت أنني لاأستطيع رسم ابتسامـة على شفتين ولا ضوء بسمة يشع على وجه .

رغم هذا أريد أن أرسم .. لاعتقادي أن الرسم أو التعبير بالفرشاة والألوان هو أصدق أنواع التعبـــير وأقربها الى القلب .

كنت لعهد الدراسة الثانوية ألوذ بحصة الفنون هربا من العلوم . وقد اقتضت العدالة ـ آنـذاك ـ أن توزع علينا الألوان والأوراق بالعدل: صاحب الموهبة وفاقدها.

الموضوع : ارسموا مشاجرة ، أو هذا الكوب الزجاجي والكتاب المفتوح الى جواره ، المشاجرة : ليس عندي لها تصور أو خيال . حقاً كنت كثير الشجار ولكني أصادم خصومي مغمض العينين ، لذلك تراهم ينالون مني دائماً ، وكثيراً ماينتهي أمري بندبة على خد ، أو جرح غائر ، أو بأنف متورم ، أو شفة مقروحة . والاستاذ الفنان يريد مشاجرة جماعية ، أعضاء تتحرك ودماء تثور وتفور . أبدأ باللون البني ومشتقاته .. فكل أهلنا ألوانهم بنية ويستخدمون كلمة (السمر) تظرفاً وخوفاً من ذكر الحقيقة .. هذا رجل في لون ثمار (الدوم) ولكن يده التي تقاتل صفراء ، وهي بعد غليظة سمينة لاتناسب جسده أبدا ، ذلك أن وجهه يوحي بنحافة بدن لاتغري بالشجار ، اذن فالرجل على أمره مغلوب ، والمطلوب أن تصور حالته كما ينطق بها وجهه ، واجعل على اللوحة دماء تسيل وقسمات تنطق بالوعيد وأخرى تبشر بالاستسلام والهزيمة ، هذه هي المشاجرة ، أأنت قادر على تصويرها ؟ كلا ..

حـاول رسم الأشياء الجـامدة الثابتة ، ارسم كوب الزجاج الذي أمامك والكتاب مفتوح الى جانبه .. قيل ان هذا يعتمد اعتماداً أساسياً على موقعك منهما : الكوب والكتاب ،وعلى الضوء الذي ينعكس على الزجاج، كوب الزجاج عليك غريب ، فأنت تشرب دائماً من كوب من الصفيح .. والكتب عندك مثل الناس ، تحبها وتكرهها بقدر مواقفها منك . ثم انه ليس هناك من شيء ثابت غير اليأس . أتستطيع أن تصور اليأس ؟ ولكنك تحس بـه يسحقك كل يوم مرات ، يجثم على صـدرك ، مرافقك ، صديقك ، ظلك فهو لهذا ثابت ، دائم ، غير متحرك .. إن كنت تحس به فارسمه أو فاصمت .

ولكنك تشعر به فكيف ترسم شعورا ؟ أهذه هي القضية أم أن الخير أن تبحث لك عن طريقة لازالته ؟.

أريد أن أرسم وجهاً واحداً يبتسم ، منظر شجرة خضراء أو بيتاً أبيض اللون سقفه أحمر على ضفة بحيرة أو حافة نهر .. أترسم اليد أم أن الاحساس هو الرسـام

والفنان جميعاً ؟ أيمكن للفنان ، الخلاق ، المرء ، أن يخلد الفرح والمرح وأعماقه تتأذى ؟ .

أسئلة وأسئلة.. أريد أن أرسم برج (بيزا) المائل، لاأريد أن أرسمه مائلا ، بل أريد أرسمه إما صائرا الى اعتدال أو أن يستريح ويريح ، ولا شك أنه خالد الى راحة يشتهيها من قرون ، وأنا أنوي أن أحقق له هذه الراحة فألقيه على الارض كتلا مهشمة من الاحجار والطوب ، ولتصبح في الدنيا ست عجائب ، سئمت الاهرام وأبا الهول، هم في الصحراء منذ نشأة الصحراء فلتصبح للدنيا أربع عجائب، ولماذا تكون عجائب الدنيا بالضرورة سبعاً ، والسموات سبع سموات والارض كذلك ؟

أخذت فرشاتي ، غمستها في لون أحمر مثل الدم ، نزفت فيها من دمي ، قلت في نفسي : فلترسم دموعا لونها الدم ولتتساقط على أرض قفر ، بلقع ، خالية صحراء ، وليتدفق دم الفرشاة عليها ودم الدموع ولتغدو خصبة ولودا ، ولتشرق من فوقها الشمس ولينزل عليها المطر حينا بعد حين ، ولنزرعها بزهور حمراء وصفراء،

وبعباد الشمس ، وليأكل النـاس من الزهور وليصبـح القمح زينة في المزهريات ، وليعلقه الرجال الانيقون السفلة على ستراتهم .

غمست الفرشاة في اللون الاصفر ، أحس أن بفرشاتي ظمأ لاغبا للون الاصفر ، قالوا ذلك لون الموت .. ومن منكم رأى الموت فعاد يصف لونه ، لاأحد رآه ، لاأحد.

عجزت عن أن آتي بلون السماء في هذا الفصل ، وأنا أحب أن أنظر الى السماء في هذا الفصل ، وأنا أحب أن أنظر للسماء حين تكون صافية لاتسبح عليهـا السحب ، وحين لايتشبث بها الغبار . فان لم تكن صافية فهي اذن ليست سمائي واني لاأحب أن أنظر اليها .

تمنيت لو أني أحلق على سجـادة عجميـة ثمينـة ذات ألوان ، ألوانها من دموع جفون فنان فارسي عجوز يجلس الى جـانبي ويحدثني عن أهل بلاده الذين مـاتوا والذين بقوا ، الذين دمرهم الزلزال فاستراحـوا والذين قضوا بالجوع على ساحل بحر قزوين . وأترحم على روح مصدق ، وأطوف على قتلة حسين فاطمي واحداً واحدا

وأعلقهم جميعاً على أقدم أشجار الفرس وأتركهم طعاماً للطير والغربان ، كيما ترتاح روح حسين فاطمي، والذين أحبوا حسين فاطمي وتنكبوا طريقه .

أريد أن أرسم طاؤوساً محشواً بالعصافير على مائدة الشاه أريد أن أرسم عذابه: الطاؤوس وعذاب العصافير وعذاب الطهاة في مطعم (ماكسيم) في باريس وهم يعيدون الريش لكل طاؤوس ذبيح وهل يعيد الريش الحياة لطاؤوس فقدها ؟!

وأتمنى أن يحملني بساط الريح الفارسي الى مكان آخر (آه لو عندي بساط الريح.. آه لو ساقاي كالأمس تطيقان المسيرا) [1] ما أكثر ما أريد أن أرسمه . في ذهني (شهرزاد) رمسكي كورساكوف قبل أن يصوغها لحناً موسيقياً أخاذاً .فيها كنت أود تسجيل سحر بغداد وتجوال السندباد ،وحباً ملتهباً بتوابل الشرق وعاطفته المشبوبة . وفي ذهني أيضاً (آيبريا) كلود ديبوسي

---

(١) من قصيدة لبدر شاكر السياب .

وكونشيرتو الكلارنيت لموتسارت ، وألف ألف شيء..

أتمنى أن أرسم مئذنة الجامع في حلفا القديمة بعيدة عن ماء النيل ، غير غرقى في مياه النيل ، أريد أن أرسم صوتاً يرتفع بالغناء الشجي ، الحق أقول أريد أن أرسم أغنية وليس مشاجرة ، أغنية حزينة ومؤلمة ، أغنية ذات شجن وعذاب ، أغنية غنية بحزنها جميلة وآسرة . أود أن أرسم (كرومة)[1] ، صوت كرومة ، رق كرومة الضارب في أوتار القلب .

واني أود أن أرسم المسيح هابطاً على صليبه ومنتقما من الذين خانوه ، وغير مدير خده الايسر لصافع الخد الأيمن ، ومقتصا لذاته ومتعقبا جناة أرضه وخائنيه .. فنحن نطمئن دائماً لمن نصطفي فيطعننا الذين اصطفينا وهذه قصة تتكرر دائماً دواما ، يطعننا الذين اصطفينا.

أتمنى أن أعد عجائب جديدة للدنيا فأولاها ليست برج بيزا ، ولا حدائق بابل المعلقة ولا برج ايفل او

---

(١) (كرومة) هو أعظم ملحن ومغن سوداني في فترة الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن .

الأهرام ، أولى العجائب النفاق وثالثتها النفاق وسابعتها النفاق .. وهل تستطيع أن ترسم يا شجرة بلا ثمار ؟

ياقاطع الاخشاب

خلصني من العذاب

عذاب أن أرى نفسي بلا ثمار .

أعلن على رؤوس الأشهاد : أن الدنيـا كروية ، لهـذا تعذب (غاليليو) ، ولأنني الآن أقول مثل هذا الكلام أتعذب ، وان كانت الأرض ، أم هي الدنيا ، كروية ، أو مسطحة ، منبسطة ، فليس هذا موضوع نزاع ، ولا هو بمحل نقاش اليوم والساعة واللحظة ، وهب أنهـــا تدور ؟ومن أدراك أنها تدور ؟ فلو كانت تتحرك وتدور لفظتنا الى شمالها المتجمد أو جنوبها السحيق .

والدنيا حالها هو حالها منذ أن عرف (غاليليـو) دورانها واستدارتها الى يومنا هذا ، ومن قبل أيامه تلك تدور وتدور أو لاتدور . ألم تسمع من يقول : هكذا حال الدنيا ؟ ويقال مثل هذا دائما في الموت والفواجع . قل لي : ولم يذكر الناس حالها حين تلم بهـم المصائب ، وينسون ذلك (الحـــال) حين تغمرهم السعادة من كل جانب ؟ غريب أمر البشر ، غريب والله أمرهم .

رأيت فيما يرى النائم شجرة وارفة الظلال ، تقوم على قبة الأفق فوق جزء من الأرض لاهو مستدير ، ولا هو منبسط ،(حلم الجوعان عيش) كما يقولون ،فالشجر الوارف الظلال أندر من أسنان الدجاج هـذه الأيام .

ولن نستغرب إن طلع علينا رجل ـ فاسق أو غير فاسق ـ بنبأ : أن من بين دجاجاته (العشر) دجاجات ذوات أسنان .

رأيت فيما يرى النائم ، شجرة وارفة الظلال ، تقوم على قمة الدنيا ، بحيث أبصرت من موقعي ذاك استدارة الدنيا ، وانبساطها أيضاً ، أبثارها تتميز الأشجـار أم بظلالها ؟ فلو أنك سألتني أقول : ان الاشجار تتمـيز بظلالها .

وكانت شجرة وارفة الظلال ، ورقها على أغصانها يميل الى سواد حالك لفرط اخضراره ، وكان ظلهاعظيما ضافيا ، وكانت الشمس لاتأتيه من أي مكان ، ولكنها تحيط بالظل تطوقه ، كانت عظيمة ، غليظة الساق ، أبثارها تتميز الأشجار أم بظلالها ؟.

رأيت فيما يرى النائم أني كنت نائما ، نومة في جوف نومة فاعجب . وأن شابا أعرف ملامحه ولا أذكر له اسما كان يقف أمامي طويلافارع الطول كان ، يد عنى صدره وبالاخرى يشير ويلوح « أنا » قال واستطرد « من جيل العادة السرية » . فزعت حتى كدت أن أستيقظ من نومتي التي هي بجوف نومة أخرى . « ماذا تقول ؟ » قلت له . « سمعتني » قال محدثي ، قلت له :

ـ أحق ماتقول ؟

ـ كل الحق .

ـ متى كانت الاجيال تقاس بعاداتها ؟ انما تقاس الاجيال بما قدمت وما تقدم من أعمال .

ـ كان هذا في القديم الغابر من الزمان ، ولكن الاجيال اللحظة تقاس بعاداتها ، كما تتميز الاشجار بظلالها لاثمارها .

ما الذي أغراني باللجوء الى هـذه الشجرة ؟ ثمرها ؟ والله اني لاأعرف إن كانت تثمر ليمونا أم زقوما ، ولكن ظلها بهرني ، فانطلقت أنشد هذه النومة الهـانئة ، نومة

في جوف نومة ، ثم قطع محدثي حبل أفكاري حين قال متسائلا « أعرفت أن الاجيال تقاس بعاداتها » ؟ . قلت وكاني أريد أن أصرفه « امض عني » أريد أن أصرفه لأن كلامه أفزعني،ولا أريد أن أصرفه لأن الحق ربما كان في كلامه . قلت له :

ـ حدثني عن ذلك الجيل ..

ـ لقد ذكرت لك من سماته أبرزها ..

ـ ولكن تذكر الأجيال بأحسن صفاتها ؟.

ـ هراء .. أبرز الصفات أحسنها .

ـ هراء .. هراء .. حدثني عن ذاك الجيل .

صفق بيديه ، رأيته في المنام يصفق ويبتسم ، ثم تظهر الى يساره فتاة رائعة الجمال كبلقيس ، ويطلع الى يمينه فتى وسيم رائع كيوسف .. ويقفان الى يمينه ويساره باحترام وكأنهما يستعدان لتلبية أي أمر يأمر به يقفان في طاعة كالمارد الذي انطلق من قمقمه ينحني احتراماً لمن خلصه من الاسر الطويل .

عقد محدثي يديه فوق صدره ، وابتسم ابتسامة هي

ابتسامة الرضا ، « ومن تكون هذه الفتاة الحلوة ، وذاك الفتى الغض النضير ؟ » أقول في نفسي ، وكأني كنت أكلمه . قال صاحبي :

ـ هذه أميرة الحسن ، رمز الجيل الغاضب ، وذاك صاحبها، على الغضب التقيا .

ـ ومم الغضب ؟

ـ كانا يريدان قصاصا من جيل العـــادة السرية فأخضعهماذاك الجيل لأوامره ونواهيه وتعاليمه.

ـ أي جيل تعني ؟

ـ قد قلت لك لاتعد علي هذا السؤال .

ـ حسناً وبم يعرف الجيل الغاضب ؟

ـ بمدى غضبه ، ومدى خضوعه لجيلنا ، ألا نحقد على من يخضعنا !

ـ ان كنا مخلصين مع أنفسنا وصادقين ! نعم ..

ـ اذن فمن حق هذا الجيل أن يحقد علينا إن نحن قد أخضعناه .

ـ شتان بين الحقد والغضب .

ـ لافرق بينهما .. هذه عاطفة وتلك عاطفة ، هذه تلهب الفؤاد ، وتلك تحرقه .

ـ فلم لانسميه جيل الحقد باعتبار أن الحقـد أبرز صفاته غير مدافع .

« ها .. ها .. ها .. » ضحك صاحبي ، ولمحت الفتى وقد تغير ماعلى وجهه من تعبيرات الى شيء يشوبـه الأسى ، ثم إنه ينظر إلى الفتاة خلسة كأنه يشتهيها كانت بحق رائعة الحسن ، ألا تشبه فتاة أنت تعرفها في اليقظة والحياة ؟ وهب أنها هي ؟ قم اليهـا وعانقها : الساعـة ، اللحظة ، الآن من قبل أن تفر . إن أسوأ الأحلام ماتعرف ـ وأنت نائم ـ أنه حلم .

« قم واشرب معنا .. » قال صاحبي .. قلت « وما تشربون ! » قال « مزيجـاً من دم هـذا الجيل وذاك » . أقول في نفسي « ومن أدراك أنك إن شربت من شرابهم أخذت من صفات هذا الجيل وذاك » .

ثم قدم لي شرابا في كوب من الخشب ، ناعم الملمس ، كان الكوب ، قال « اشرب » . سكت ، نظرت اليه ،

رأيت في عينيه تصميماً وعزماً ، كانت الفتاة من خلفه تهتز بايقاع لايسمع ، قلت « لا أشرب من شرابكم ، لكم جيلكم ولي جيل » ... تقدم نحوي خطوة ثم أشار بيده فجاء الفتى ، ثم جاءت الفتاة ، أوثقاني ، وسقاني الرجل كاس الدم حتى آخره ، فاستيقظت وطعم الدم في شفتي وحلقي ...

استيقظت من نومتي الثانية وكنت من نومتي الاولى في سبات مضطرب . سأل مفسر الاحلام « أحلمت أنك مت » . قلت « نعم » قال « فاعلم ـ أفادك الله ـ أنك ستأكل حتى تشبع » . متى كان الموت شبعا ؟ يقولون شبع فلان من همّ الدنيا حتى طست نفسه فمات ! .

الدنيا كروية ، او هي منبسطة ، هذا كلام يحتاج برهانا ملموسا ومحسوسا . وقد رأيت فيما يرى النائم أنها ـ الدنيا ـ مسطحة بلا حد ، وأني سرت حتى بلغت نهايتها . ولم تكن تلك النهاية هي مدينة (فاس) ، لأني اكتشفت ـ وبالحدة الذكاء ـ ان قوماً يعيشون من بعد (فاس) . وأن أقواماً يرزقون فيها ومن حولها، ولكني

بلغت نهاية الدنيا على كل حال . وأعلمت في نومي أن للسماء أيضا نهاية، وأن هناك شجرة وارفة الظلال لا تأتيها الشمس لا من خلفها ولا قدام ، وأن النوم تحتها لذيذ ورائع . ولكن الاحلام تحت ظلها عذاب ، وعذاب النوم – كما تعلم .– أشد ايلاما من عذاب اليقظة .

ثم جاءني في نومتي الاولى وفي حلمي الثاني يقول في ثقة « أنا من ذلك الجيل » وأقول له « إني لا أعرف ذلك الجيل ولم أسمع به» . فيرد بانه جيل الخلاصة من الخلاصة بين الاجيال ... « تعذبنا » قال واستطرد « وذقنا الويل والهوان ، وسمعنا وأبصرنا بأشياء تشيب لهولها الولدان » قلت « لكم جيلكم ولي جيل » . ضحك ، كان وحده ، شاخ وجهه ، اشتعل رأسه بالشيب هذه المرة . قلت له « أراك قد كبرت بين نومة ونومة » صمت محدثي ثم ضحك وضحك وضحك فتساقط شعره الابيض وانمحت الغضون من على وجهه . وأمر بالفتى والفتاة فجاءا اليه ، ومن ثم انحنيا احتراما وتجلة . قال الفتى الذي هو في الحسن مثل يوسف « نحن من جيل الغضب»

ثم قطب جبينه فازداد جمالا . وقالت الفتاة « ونحن من جيل العذاب » . وقال محدثي يخاطبهما « ولأنكما خلقتما وجد على الارض العذاب» . وقطبت الفتاة جبينهاغضبا فزادت جمالا . ثم اتجه محدثي إلي وقال « أما أنت فقد صرت منا » . أقول في نفسي متسائلا « صرت منكم . ومن أنتم » ..

ضحك وقال « نحن من الأرض من حيث تبدو كالكرة ، ونحن منها من حيث تبدو منبسطة مسطحة. ونحن ونحن ونحن .. ألست منا . »

ثم نهضت من فراشي منهكا ذات صباح .

مقامة البحر والسماء

للأرض قانون ، وكذا للسماء قانون ولله في خلقه شئون ، فان كان للأرض قانون وكذا السماء ، فما بال البحار الفسيحة الأرجاء، البحار ذات الشعب المرجانية والكنوز اللؤلؤية ، أليس الماء أزرق كالسماء وكالتراب والسحاب ؟ انظر حولك دع الفلسفة للفلاسفة من (المستقلين)[1] و (المناشفة)[2] ودع أمور الكون لخالق الكون ، والزم السكون ، وتدبر أمر ماكان ودع ماسيكون، فمثلك كالفار المسئول الذي ـ لفرط ما قال ـ أكله الغول ، فان كنت تهوى هذا المصير ، فأكثر من الزئير ، واعلم أن من الهمس مايؤذي ، ولو كان الهامس

---

(١) المستقلون اسم حركة طلابية سودانية أوجدتها ظروف الصراع الحاد بين الشيوعيين والاخوان المسلمين .

(٢) « المناشفة » أو « المنشفيك » اسم يطلق على جماعة مرقت على قيادة الحزب الشيوعي السوداني في مطلع الخمسينات وفي اللفظ اشارة الى منشفيك الحزب الشيوعي الروسي .

يهذي ، أطال الله بقاء سيدي ، فما فعلته كان بيـدي ، وليس بيدعمرو ،وانالانعصي لكممن أمر ،دستورياأسيادي.. ياأسيادي أنا جيت في ميعادي ، في ميعادي ..

أقول وتقول والقول لمن يستطيعه حياة ، وللصامت أبداً تكتب النجاة ، وقد قررنا قولة النصيحة ، وإن قالوا (الدغورة) فصيحة ، واعـلم ـ أفادك الله ـ أنا نتحرى الحقيقة بطرقنا الدقيقة ، ونكشف المجهول دون أن نخل بالأصول .

حين ركبنا السماء ، وطال بنا العناء ، نظرنا تحتنا من خوفنا ، فاستوت من تحتنا الغبراء والسماء والبحار وكل ذي عقل من خلقه يحار ، وميزة التحليق في الاعالي انك ترى البيوت كالبلالي. الكوخ : بيتنا الصغير ،والقصر الذي يسكنه الأمير ، والخوف يغـزو قلب كل راكب ، حتى البريد والمتاع والحقائب ، المضيفة الظريفة الشجاعة نمت بقلبها من الخوف مناعة ، ياابنة الحلال : هل انعدم العمل في الأرض، أم أن طلب العلا فرض ،سبع ساعات فوق المحيط تحت قبة السماء ، ونشتهي لفرط لهفتنـــا

شربة ماء ، أقلت ماء أيها الجنتلمان ؟ قالت وفي ابتسامتها حنان . نعم أيتها الجميلة ، ليتني ماكنت في الهوا معلقا وليس عندي حيلة ، قلتها في سري ، وللباري كنت قد فوضت أمري ، نعم كوب ماء بارد ثليـج ، وصاحبي بجانبي في صمته البهيج ، شرب كأساً سابعة وفقد الوعي بعد الرابعة ، سألها صاحبي بصوت خافت حزين عمـا تبقى من رحلة العذاب والأنين ، قالت بابتسامة خلابة، ألا ماأتعسها اجابة ، أربع ساعات بقين حتى آخر المطاف والمرء من الزمان الآتي دائما يخاف ، وهز رأسه الثقيلة صاحبي والجار ، ومص شفة بيضاء كالمحار ، وفهمت الجميلة الكلام ، وسارت للامام .

قال : أتسمع الأزيز والعواء ، ان البحر يشبه السماء قلت : صه،لا هو أزرق ، ولا هي بالزرقـــاء ، الخوف لونهما كلون الطحلـب المخضر والاخضرار لون الشر ، قال صاحبي و كأسه في حلقه تغيب ، صدقت : الزرقـة بنيلنا الحبيب ، ألا ما أبعـد المشوار ، ويا طول شوقي الى الديار ، دمعة الويسكي من عينيه تومض بالبريق ،

ويأكل الحشا الحريق ، « يا شوقي » قال الى أم درمان لطينهاوأهلهاالسكان ، بل وياشوقي حتى الى الخرطوم، سلامي لها من شاطىء النيل الى الديوم ، « تعالي » قال : هات كأساً من شراب ، فالشوق أسلمني الى العذاب ، قالها في لهفة تطير ، والخوف صيره الى سكير ، ابتسمت الجميلة وعملها على الدوام ابتسام ، وأومأت برأسهـا لصاحبي الهمـام ، ويحي أخي شربت كي أنام ، قال صاحبي والخوف في عيونه أخاف خوفي وأورثني السقام، أهملته لحين أن أصبت شيئاً من ثبـات ، نظرت حولي للراكبين وأكثرهم كان في سبات ، ألم نجعل النهار للمعاش! فاستيقظوا يا أيها الأوباش .

رأيت امرأة مني الى اليمين والخوف جامد في وجهها السمين ، أكملت حصة حياتها من النوم في سنين، وصمتها البليغ ماثل سحابة من الصمود ، ولهفة لوطنها تريد أن تعود ، وأنت للعلم تترك الأوطان ، وتهجر الصحـاب والخلان ، وتقع في أحضان الغربة ،وهي بعـــد طول مكث بالوطن صعبة، المشكلة الآن هذا الصاحب العجيب

فالمرء من أفعاله يشيب ، والذي يشقيك أنك ظننته عبد المعين ، فاتضح انك المعين ، يارحلة العذاب في سفينة الحديد، كم بقيمن عمرك المديد ؟وحين عدت اليهبالبصر كان قد نام حتى شخر .

أين الماء ياحفيدة الكاوبوي ، وأخت جون ولامبرت ثم روى ، « اهدأ » أيها السيد العظيم ، قالت والعين مني فوق صدرها الفخيم ، فهناك في الركاب سيد يحتاج للاسعاف ، ونحن من الراكبين دائماً نخاف ، أسرعي اليه أخت جون ، فقدأورثنا الانتظار لوثةالجنون ، صاحبي قد نام نومة عميقة ، وكان يرصد الطريق بالدقيقة .

ساعة وساعة وساعة ، ويالمضيفة الحسناء من رهبة مناعة ، تروح طالعة ونازلة ، فما عساها فاعلة ، أين الماء ياحفيدة الكاوبوي ، وأخت جون ولامبرت ثم روى ، متى ياأخت ساعة الهبوط ، والله قد أصابني القنوط ، « بعد نصف ساعة، بعد نصف ساعة ».

« مدينتي من تحتكم ياسادة ، اني أعبدها عبادة » قالها الطيار في حنان، وأطلق لأجهزة الهبوط العنان ، اسمها

مدينة الاسمنت والحجارة ، ولها في وطننا سفارة، بيوتها تطاول النجوم والسحاب ، وتقهر الرياح والضباب أحبها أحبها ، ولا أريد بعداً عن قربها ، مالت الطائرة مثل الفيل ، وهبطت بجسمها الثقيل ، مدينة تطاول السحاب وتقهر الرياح والضباب ، صدقت أيها الطيار ، لكنني رأيتها من مقعدي كالفار .

الماء ياجميلة القوام ، الماء يا أنيقة الهندام ، الماء ياحفيدة الشيطان، وأوقظي صديقنا عثمان ياشوق قلبه لأم درمان. ولم تقل كلمة ، أهملتني بنت الأمة ، أنت مسافر في الجو فوق قمم البحار ، ولكنـــك في الارض أسود تصيب الرأس بالدوار ، حسناً فهمنا كل ماقيل بالصمت من كلام وخرجت من الطائرة مثل سائر الأنام ، كان صاحبي قد عاد للحياة من جديد ولم يعد يخاف طائر الحديد ، ألم نقل أن ليس للبحار من قانون ، والحرية ليست تناسب القانون لذا يلذ في البحار العيش أيها المجنون ، السمك الكبير يأكل الصغير ، والحوت ملك متوج بالدم والمرجان ، والملوك في البحار والأرض معاً تقاس بالاوزان ..

الهاتف في هدأة الليل

دفنت وجهك بل وروحك في الكتب القديمـــة والصفراء ، وما أغنتك الكتب القديمة والصفراء عنها ، ثم عدت دفنت وجهك بل وروحك في الكتب الحديثـة والبيضاء وما شغلتك الكتب الحديثة والبيضاء عنها ، ثم عدت أشحت بوجهك وروحك عنها جميعا ، إذ لايمكن أن تصبح نعاماً من البشر ، أو بشراً من النعام .

صوت الهاتف في هدأة الليل المظلم يوقظك ، تعرف معنى أن يوقظكصوت طرق على البابأو صوت هاتف، لابد وأنها فاجعة . تمر بذهنك صور من ترشحهم للموت القدامى من الذين هدهم الصراع الرهيب. لحظات يطوفون برأسك المشحون بالنوم الكثيف الذي انقطع فجـأة على صوت رنين (ترن .. ترن .. ترن ..)المرأة قريبتك : كانت هاهنا في الصباح تسأل عن الصحة والأحوال والعمل وهل يفيدها أن تخبرها بشيء عن العمل ؟ نعم ، نعم. كل

شيء على مايرام العمل نفسه بصحة جيدة · ترد عليـك « الحمد لله ياولدي .. الحمد لله ..البيت ده ياولدي عايزليه عروس .. الله ما هون ؟ » تقول لها « لسه ياحاجة،لكن البيت ده عايز زبالة[1] ..وربنا برضه يهون » وتقولهي « الله يعدل الشينة » .

(ترن .. ترن..ترن..) أم ماتت تلك التييسمونها (الدلالية) المتاجرة في الحلي والثياب ، كانت سمينة ، بدينة ، طويلة ، عريضة ، امرأة هي مثل رجل قوي . لماذا تقول (كانت) و (كانت) أماتت هي بالفعل أم ماذا جرى ؟ (ترن ..ترن .. ترن ..) « هذا آخرثوب من نوعه .. جاء من الحجاز .. لن تجدي له نظيرا في السوق .. التجار يخفون هذه الثياب .. ادفعي ثلاثين جنيها » تقول هذا ثم تنزل بالسعر الى ربمـا عشرين حين تحس عزوف المشتريات عن بضاعتها ، وتكونقدأقسمت أيماناً غليظة ، وتأخذ مصطفى وحامد كلفني سبعـــة

---

(١) « الزبالة » مزيج من الطين وروث البهائم تطلى به البيوت فتقيها شر الامطار وقسوتها .

وعشرين لكن عشانك يازهرة ، عشان معزتك عندي..
الخ هذا الكلام .. وما صلتك بالبـــدينة السمينة حتى يوقظك هاتف بموتها ؟ من الذي مات اذن ؟ عبد السميع خال أمك الذي بلغ التسعين واحتاج سمعه ترجمـــانا ؟ والذي يصر على العمل ايمانا منه ان الحياة في العمل ؟..

(ترن.. ترن.. ترن ..) ليس هناك أحدبالمستشفى لماذا تربط الموت بالمستشفى .. أنت لم تفعل هذا،ولكن المستشفى ارتبط بالموت .. وليس هذا ذنبك بل ذنب المستشفى ، تدخله حيا وتخرج منه ميتا .. طال الرنين الخير أن ترد .. « أيوه .. فلان » صمت بارد على الطرف الآخر ..أيجوز أنيوقظكأحد و « آسف النمرةغلط؟» أيعلم مدى العذاب الذي يمكن أن يحل عليك ؟ وجفاء النوم عينيك ربما لمدة تدوم حتى الصبـاح ؟ . « ألو .. أيوه : فلان » صوت كأنه النسيم المنعش في الصيف القائظ ياتي صافياً وحلواً . « صاحي واللا نائم ، أوعى أكون صحيتك » اكذب كذبتكالكبرى « يادوب داخل البيت » وصوتك المتعب المكدود يفضحك .. أكنت

تغني أم ماذا ؟ أردنا أن ننساك ، وأنت تحيين في حياتنا ، تقاسمينا حياتنا ، يا أنت يا أيها الشيء اللطيف والجذاب والقوي والضعيف أنت .. يا أنت .. « ضربت عايزة أتكلم معاك .. » أليس هذا هو مايحدث في التلفون ..؟ ألا يمكن تأجيل الكلام حتى الصباح ، ولم العجلة ؟ صه أنت بينك وبين نفسك مبسوط ، أن تسمع صوتها فهي سعادتك الني ليس من بعدها سعادة .

أمضيت قسماً من الليل تنتظر هذا الصوت، تشتاق اليه : الصوت ، أيدرك المرء كل مايتمنى ؟ وما الذي تمنيت أنت ؟ كلمات على أسلاك التلفون ؟ ولما طـــال انتظارك ورأيت الليل يزحف آثرت أن تخرج الى السوق وتعيش مع الناس جزءاً من حياتهم كما اعتدت أن تفعل، وقد أتعبك الانتظار ، (النـاس في شنو والحسانيـة في شنو ؟) ياشيخ الحسانية يا أنت ، أتحس مايحسه الناس ؟ وأين هي خططك وأين برامجك ؟ ألم تقل أنك ستفعـل هذا وذاك ؟ ألم تقل أنك ستقول للناس كلاماً نافعاً ما الذي يجعلك اذن تعيش على هامش الهامش ؟ ألأنك زهدت في

اصلاح أمر من الأمور ، أم لأنك تترك الاصلاح لمن يقدرون عليه ؟ وان كان الأمر كهذا فان في الدنيا أموراً أهم وأولى بالعناية والرعاية .

أيهذا الصوت . كم تشتاق اليه الصوت ، لم تعرف شيئاً سوى الصوت .. أيشغلك الصوت ، وصاحبة الصوت الى هذا الحد ؟ ألم تكن تنوي كتابة رسالة في ذم بعض من عرفت من التجار ! أين هي الرسالة ! أم أنك قد صالحتهم ! تتحدث عن الاشتراكية ، فيتحدثون عن قفل باب الاستيراد ، وعن السوق الميت ، ويذبحون المشتري المسكين على مذبح الجشع ، تكلمهم عن المستقبل فيتحسرون على أيام (هونغ كونق) وسلع (هونغ كونق) ثم يذكرون الصين : يذمون نظام الحكم فيها ويكسبون ذهبا من معلباتها وقمصانها السكروتة .

(ترن .. ترن .. ترن ..) تحاول أن تنسى الصوت وصاحبة الصوت « غني » تقول لها « صوت جميل » تقول « صوتي أنا جميل ! أنت أول من قال هذا الكلام » بعد صمت قصير تقول «فلنغن معاً . . » وأي أغنية تعني !

أنت لاتحفظ هذا الكلام السخيف الذي يسمونه غناءهذا الزمن .. اجعله خيراً يارب .. أنتلاتعرف هذهالاغاني الجديدة .. « تعرفي : وجـه القمر سافر . » « شنو . » تهتف باستغراب وتستطرد .. « وجـــه القمر شنو . ماسمعت بيها أبداً » ..

وانك دفنت وجهك في الكتب القديمـة والصفراء وفي الرمل ، ولم يفـدك ذلك بشيء ، صرت بشرا من النعام أو نعاماً من البشر ، إن الذي يبدأ لابد أنينتهي، كل شيءيتغير دون أن ينذرك بتغيير ، وتتغير علاقات الناس من حولك وأحاسيسهم وتعرف أن فيهـــم من الصفات مافيهم .. أنت وحدك الثابت على حمـل الوداد وحفظه..اللباس الذي ترتديهفي الصيف لايصلحللشتاء. والحب هذا الشيء الاسطوري المبهم أصبح بحق شيئاً أسطورياً مبهماً ، كان ولم يكن ، أصبح عند الناس رداء يخلع ليحل مكانه رداء آخر .

وانك تحس بالأسى ، أتستطيع اصلاح العـــالم من حولك . أم أنك تعبث عبثاً لاطائل تحته ، والقلبالذي في صدرك . قليلة هي القلوب التي في الصدور ، فالقلوب

ذاتها قد غيرت مواقعها بالأجساد ، ولم تعد ترضى لنفسها بقاء في الصدور وربما لهذا وحده أصبحت تخفق بايقاع آخر .. وقلبك الذي آثر أن يبقى في موضعه ذلكالقديم ليس بغريب عليه أن يداس بالأرجل وأن يطعن بالمدى حتى يدمى ، تكسرت النصال على النصال ، فهـذا الذي بصدرك قد تعذب في ثلاث قارات ، وأدمي في ثـلاث قارات ، وبكى في ثلاث قارات .

(ترن .. ترن .. ترن ..) صوت التلفون ينـذر بكارثة ، كنا نغني معـاً ، أليس كذلك . صوت يعشق صوتاً ، ليس هناك من يغني ، يموت الناس ليحيا الناس تكون سماداً لزرعهم ، وسبباً في طعامهم وحافزاًللذاتهم وان كانوا يمرحون فوق جسدك ، أليست الحياةهكذا ..

تنمو الأشجار وتتعاظم بالسماد وملح الأجساد الميتة أليس جميلا أن يمنح الموتى الحياة للاحياء ، حب هـذا الزمان نزوات ، نزوات طارئات عابرات . وقد كتب عليك أن تكون من بعض ملحالأرض ، من بعض سمادها تسمو وتنهار وتلك هي الحياة (كسرة خبز ومضجع

بالحب يسمو ..)[1]

(ترن .. ترن .. ترن ..) صوتها أم النوم اللذيذ أحب اليك ، صوتها ، ومن بعد صوتها النوم اللذيذ « كنت نائم ، أوعى أكون صحيتك » اكذب كذبتك الكبرى ، كنت بالفعل نائماً ، وكان نومك عميقاً ولذيذاً ، يفيض بالأحلام ولم تكن أحلاماً مزعجة ، بل كانت صافية صفاء النوم ذاته ورأسها الجميل يتراقص أمام عينين أثقلهما النوم « أبداً أنا يادوب جاي » وتصمت هي فترة ثم تقول « أنا مش قلت ليك ماتساهر ، » ترد « واحد صاحبي عنده حفلة » ترد هي «أفرض : أصلوا مكتوب عليك تحضرا ؟ » .

وقد تسكن القلوب وتهدأ كما تموت البراكين وقد تثور البراكين من بعد خمودها ، وقد تقتل وتدمر ، وقد تبدع في ثورتها فتصبح قبلة للسائحين والناظرين جميعاً . ألم تكن تنوي كلاماً في بعض من عرفت من التجار ، من الخير لك أن تنام .. من الخير لك أن تنام ..

---

(١) جزء من قصيدة للشاعر الامريكي (بول لورانس دنبار).

خواطر رحلة صيف

آثرت أن أركب القطـار من باريس الى بلغراد ، كنت أريد أن آخذ براحة ، ومتعة حين أنظر متأملا في أنحاء البلاد الأوروبية التي يمر بها القطار في طريقه . وقد خدعتني أوروبا عالم الجغرافيا ، فهي في عالم تجتمع فيه افريقيـا وآسيا والامريكتان واستراليا ـ صغيرة يستطيع القطار السريع أن يطوي أنحاء دولها الكثيرة الصغيرة في ليلة واحدة . ولكنها لم تكن كذلك ، اذ أنفق القطار أكثر من أربع وعشرين ساعة بين باريس وبلغراد .. فلم أنعم براحة كما كنت أمني النفس، ولكني سعدت بالنظر والتأمل .

وقد مر القطار على أجزاء من ايطاليا ونحن نوم ، وفي صباح اليوم التالي تمتعت برؤية طرف من مدينـة البندقية ، ليس ذاك الطرف هو ما أثار أخيلة الشعراء بل محطة للسكة الحديد نشطة الحركة وأجزاء من البحر

هادئاً كان البحر وساكنا . وفي ظهر اليوم ذاته شاهدت قسماً من مدينة (تريستا) ، وقد بهرني وسرني مارأيت بهرتني (تريستا) وأنا أمر بالقطار فوق الجبال المشرفة عليها ، كان مكان القطار سامقا ، والبحر من تحته بساط ساكن ، ومراكب شراعية عليه ، وبواخر عظيمة ، وبيوت بيضاء على شاطئه ، سقوفها دونما استثناء حمراء وأشجار باسقة تقوم على سفوح الجبال حتى تصل حافة الماء . تلك اذن هي (تريستا) آخر عروس في العقد الايطالي المتألق، ومن بعدها أرض يوغوسلافيا بجمهورياتها الست . ولم أحس اختلافاً كبيراً سوى أننا بعدنا عن البحر فلم نعد نراه .

الأرض هي الأرض ، ربما قلت الأشجار وقل العشب أما الجبال فقد صارت الى سمو وارتفاع ، وكلما زاد سموها وارتفاعها نمت الوحشة في نفسي ، نشأت ثم استقام عودها واستوى ولا أعلم لهذا سببا . ولكني أذكر أني كنت أتأمل (جبل أم علي) مرتين في كل عام ، وأنا أمر عليه في الطريق الى كريمه وحين العودة منها ، وكان

القطار يصل اليه في الظهر دائماً .. وكنت أراه : الجبل قفرا بلقعا خرابا لاشجر فيه ولا حيـاة ، سوى قبور أولياء صالحين تضيء على قمته . وإنه بحجارته الخشنـة المجهدة بفعل الريح والسنين يشرف على النهر . وكنت أرثي لهما : الجبل والنهر . فهما هناك في مكان موحش لا أنيس لهما ولا صديق ولا حيـــاة ، تفزعهما الريح وتفزعهما الشمس . وقد ذكرت (جبل أم علي) حـين رأيت جبال يوغوسلافيـا الجرداء ، ووحشة محطـات السكة الحديد ، وتخيلت منظرها في الشتـاء ، ورثيت للجبـال حين يهـل ذلك الفصل المرعب بريحه وثلجـه وزمهريره . ذكرت (جبل أم علي) ، وذكرت الوطن . ثـم طافت بـذهني كل الأحداث التي شهدتهـا يوغوسلافيا من مقاومة ونضال . فمدينة بلغراد وحدها كانت مطمح الغزاة وهدفهم عبر التاريخ . وانها لذلك دمرت ثلاثين مرة في تاريخهـا . وكان أهلهـا ـ البـلاد والحاضرة ـ قادرين بعزمهم وتصميمهم على تشييدها كل مرة .

وذاك قائد تركي يقتل خمسة آلاف يوغسلافي ويصنع من جماجمهم جدارا ، ومن قبل هذا يثور الفلاحون في شمال يوغوسلافيا على النبلاء وطغيانهم وينتصرون الى حين ، ولكن النبلاء يسحقون الثورة في النهاية . وكان مصير زعيم الفلاحين أن حلق شعر رأسه وألبس تاجاً حديدياً ملتهباً فمات .

وأنطلق الى (مقدونيا) المقاطعة الجنوبيـة حيث يعقد مهرجان الشعر في بلدة (ستروقا) ، وفي محطـة الباص في منتصف النهار نزلت أحمل متاعي . حقيبـة كبيرة (بلدية) السمات . تجمع الناس من حولي مستغربين منظر ذلك الاسود الذي حل المدينة . ولا أحـد منهم يعرف الانكليزية . والعمل ؟ بالاشارة يفهـم اللبيب . كانت الشمس ساطعة كالشمس في بلادي . (وبين وجوه الناس وجوهاً أنت تعرفها بالوطن) ، شاب يـذكرني بشاب وفتاة تشبه فتاة . وهي تريد أن تساعـدك أيهـا الغريب وتبدي حماسة بلغة هي لغة الطير :

ألامن يبلـغ الحرة في الفرضة اخباري

وفي أضلعها وجـد ولا تكتمـه واري
وهيهات على حبك لي دارك من داري
وبحر الروم ياحسنا ء لايملك أوطـاري
ولاالثلج العظيم التاج فوق الجبـل العاري
وخداك من الديباج والشعر من الغار[1]

« قدمت الى هنالمهرجان الشعر » ، قلت بالانكليزية، لم تسعفها الكلمات برد فوري ، وسكت أنا أتذكر كلمة : شعر بلغة أهل البلاد وكنت قد تعلمتها ، « آه » قالت محدثتي ثم ذكرت بلدة (ستروقا) وأرشدتني الى مـكان البص . وفي (ستروقا) حدث ماكنت أخشاه فقد تجمع الناس من حولي من جديد . كانوا يتكلمون ويتكلمون وأنا أستمع وأستمع ، يريدون أن تلتقط أذناي كلمة أو كلمات فتبطل الألغاز وينهار الجدار السميك الكثيف . وبعضهم ومنهم من يشارك بكلمات انكليزية ولكنهـــا لاتسعف بـل تذوب في بحر عجـاج من لغـات الطير العجمي .

---

(١) الأبيات للدكتور عبد الله الطيب .

لماذا لم يظهر مرافقي ؟ اذن لأغناني مشقة الوقوف تحت الشمس وسط أناس لايعرفون لساني ولا أعرف لسانهم. وأخيراً جداً جاء الفرج حين وفد الى المكان رجل يتحدث الانكليزية بطلاقة واتصل بمنظمي المهرجان فجاؤوا على عجل ثم أخذوني الى بلدة (أوخريد) واستقر بي المقام في فندق جميل يشرف على بحيرة (اوخريد) ، وعلمت أن ضيوف المهرجان يقيمون هناك ويمضون الى مكان المهرجان في بلدة (ستروقا) القريبة .

صادف هذا العام (١٩٧١) العيد العاشر للمهرجان ، تجمع أدبي أوروبي وعالمي ، يقام صيف كل سنة ويعرض المشتركون فيه نماذج من انتاجهم ، ثم يعقدون حلقات نقاش تبحث قضايا الشعر ، وموضوع البحث هذا العام كان (الشعر والعصر الحاضر) . ومن بين الشعراء الذين اشتركوا في المهرجان (بول شنوك) من بلجيكا ، و(جورج ماكيث) البريطاني و (دانيال فانفاني) المجري ثم الشاعر العالمي الشهير (اودين) والذي خصص له منظمو المهرجان ليلة خاصة لاشعاره .

ولم أكن أعـلم أن للشعر أنصاراً ومريدين ودعـاة متحمسين مثلما علمت هذا هناك ، وليس هذا غريبا اذا عرفنا اهتمام أهل (مقدونيا) بالشعر . وتمتد (مقدونيا) جسراً بـين اوروبا والشرق الأدنى ، واتصف أهلهـا بقدرتهم على الصمود في وجـه الغزاة والمعتدين ، وقـد كانت فيما مضى أرض الميعاد في نظر الغزاة لموقعهـا الجغرافي ولجمال مناظرها ، واعتدال هوائها ، وأرضهـا تشبه سجادة ثمينة متعددة الألوان ، تزدان بحقول القطن والزهور والتبغ والعنب ، ولقد لمست طرفاً من جمالها في جبالها الخضراء والاشجار المتشبثة بسفوحهـا في اصرار ، مثلما هي تخشى أن تسقط في مياه البحيرات فتموت غرقاً ،ولمست جمالهافي بيوت الفلاحين المنتشرة في الحقـول ، وفي الطـرق التي تلتف حول الجبـال وتطوقها .

ويصادف هذا العام (١٩٧١) العيد العاشر لمهرجان (ستروقا) الشعري والذي أصبح مظاهرة أدبية أوروبية وربما عالمية السمات، وهو بالنسبة لأهل يوغوسلافيا عامة

وأهل (مقدونيا) بصفة أخص من أهم أحداث السنة ، ورئيس الجمهورية نفسه يرعاه .

وربما كان الشعر شريانا كبيراً وأصيلاً في جسد (مقدونيا) ، وهي غنية به ، تجود به ، برغم أنها عاشت قروناً في ظل الحكم الأجنبي الغليظ والفظ ، والذي كان من آثاره أن حد ـ الى حد بعيد ـ من تطورها الثقافي برغم أنها ـ أي مقدونيا ـ مهد الثقافة السلافية :

يا أمي : خاتمي يسبح
في البحر الهادي
أمي : هذا ليس خاتمي
يا أمي: بل هذا بطل رائع
أمي : كوب زجاج يتعقبه
ياأمي: هذا ليس بكوب زجاج
أمي : بل هي فتاة صغيرة ...

تلك قصيدة شعبية ، بسيطة جداً ، وفيها رمزية ساحرة هي بعض مايتصف به الشعر في (مقدونيا) .

أو هذه المعزوفة الشعرية الشعبية وما تزخر به من صور خلابة واسمها (القمر) :

لاتـبزغ في أول المســاء
لاتبزغ حتى يأكل الفتى عشاءه
فجيـاده في الحقـــول
والمفاتيـح عنـــد فتاته
والفتـاة في نوم عميـق
تحت الزهـــور الحمراء
واللـيـلاك المـزهـر
أزهر من فوقها الليلاك
وتنـاثر على وجهها ...

وصور الشعـر الخلابة ليست قاصرة على الأدب الشعبي وحده ، ولقد اخترنا قصيدة عنوانهـا (أغنيـة الجندي الذي يرقد على عمق مترين تحت الأرض) للشاعر المقدوني (سلافكو جانفسكي) ..

لقد انتهيت

ولكن حبال صوتي
باقية على الأجراس البيضاء
تنام عليها الرياح ساعة الغروب
وداعاً أيتها الطيور ..

لقد انتهيت
عيـــوني
باقية في المياه السوداء
شربتها عند الغروب دوامات البحر العطش
وداعـا أيتها الغيوم . .

لقـد انتهيت
أصابـع يـدي
باقية تحت العشب
البنات يجمعن الزهور سـاعة الغروب
وداعـاً أيتها الليـالي

الحبال الصوتية ترتعش من ألم
شجرة زيتون تصبح عمـادا للسموات
لـكيلا تنهـار . .

العيون تنثر المـاء
ترسـل أغصانهـا
نحن من ثمـــارك
الاصابـع تسأل العشب
فلتلفنا في جلدك
ياجـذع الشجرة

لقـد انتهيت
وعلى جبهتي ترقد
ليلة طويلة
ليلة ثقيلة
ليلة طويلة

وبعد ، فهذا الشعر الذي يحول الحقيقة الى صور من الخيال الجميل هو من بعض الجمال في (مقدونيا) ففيهـا جمال الشعر هناك من جمال الطبيعة .. فأنا مثلا ، كنت أظن أن زرقة الماء لون رمزي أو اصطلاح فني درج عليه صانعو الخرائط ، حتى ركبت قاربا عبرت به بحيرة

(اوخريد) فأدركت ساعتئذ أن زرقة الماء فيها شيء تحسه وتراه كزرقة السماء تماماً . وكانت السماء زرقاء حقا ، وماء البحيرة حقيقة أزرق ، ولم يحل دون امتزاج الزرقة في هذه وتلك إلا الجبال الخضراء التي تحف بالبحيرة كأنها تحفظ لها ماءها والزرقة في مائها .

كان من حظي في ذاك الصيف أن أمضي أياماً في دولة الشعر وأياماً في غير دولة الشعر وقد سعدت بهذي وتلكم.

سُور عند النيل

السور الذي هو عنـد النيـل في الجنـوب الشرقي لامدرمان أثر يخلب لبي ، حقاً انه ليس في قوة الأهرام، ولكنه في ظني خالد جداً ويذكرنا بأننا سودانيون،وأننا ذات مرة من المرات ، ذات جزء من قرن من القرون كنا سادة أنفسنا ، وكنا وكنا .

وأن هذا الجدار الطيني السميك كان بعضاً من كل هو سور أمدرمان الحصين .. المدينة التي كانت حاضرة السودان المستقل ،ولأنها كانت كذلك ، ولأنها أصبحت حاضرة البلاد بعد جهد وحرب تحرير ضارية ، لهـذا كله أصبحت هدف الجيش (الفاتح) .. وتهـدم السور الطيني السميك ، وبقي منه جزء نراه كل يوم ولا نقف عنده لحظة ..

إني متحيز جداً لمدينتي : أمدرمان ، لأن في بيوتها مشابهـا من ذلك السور الصامد عنـد النيل ، في لونهـا:

البيوت في مواد بنائها : البيوت ، في مظهرها الخارجي البيوت مدينتي حبيبتي ، كانت حاضرة وكان يقوم على جزئهاالجنوبي سورحصين ، صمد ثمانهار ، وأتانا«الترك» وحلوا أرضنا على الرغم منا ..

« الجعلي يقضي يومه خنق » تمر الأيام وكلها خنق ، انظر ماترى ، ليتك كنت وكنت وكنت ، ضرب من المقاومة مذهل ، يخنقك التركويخنقك الأتراك ويخنقك الانكليز ، ويخنقك من بني أهلك قوم ثم أقوام والجعلي يا أنت صابر تمضي يومك خنقاً وتستعد لجولة أخرى ، وما هي النتيجة ؟ إما أن يموت الجعلي أو يكف معذبوه عن الخنق ولكن الجعلي لايموت .. بل يقضي خانقوه .

مدينتي أحبك .. ياأمدرمان كانت هي وما تزال الملاذ ، ولم تنكرك مرة ، حتى في أوان الشدة والبأس ، قال رجل ممن صادفه هتافكم مرة في الطريق « حاجة عجيبة ..» قال ومن ثم استطرد « صرفنا عليهم دم قلبنا وعاملين اضراب طعام ! » ومنكم من سخر منه وفيكم وبينكم من أهمله وواصل الهتاف ، وآخرون تحرشوا

به .. ولكنه ـ الرجل المسن ـ كان قد قال كلمته وانصرف وكان هذا بالتحديد رأي جيله من أهلكم الاقربين الآباء والأمهات والأعمام والأخوال . كان هـذا رأيهم « لـماذا تضربون عن الطعام » وما كان من الممكن أن يفهمـوا الكلام .. « أيها الناس .. » اترك هذا الكلام .. حقا : لماذا أضربتم عن الطعام ؟

« أولا .. الطعام رديء جداً ورديء جـــدا .. » ونقول « وثانيا .. أضربنا عن الطعام لأننا ضدالاستعمار» قال أحد أولياء الأمور : « جميل .. لو أوضحت لنـا الصلة بين الطعام والاستعمار عفونا عنك » الطعام رديء والاستعمار رديء ؟ « أهذا كلام تقوله ؟ ليس عنـدك غيره كلام »

مدينتي كم أحبك ... ياأمدرمان .. ياحاضرة الطين والقش والناس الأكرمين .. ياذات السور ، الجـدار ، الحائط كانت مدينة تضم من الناس مليونا ، كان هذا في الماضي ... قال هذا (ثيوبولد) الذي أصبح مؤرخـــا لتاريخنا ، كان بها من البشر مليون .. أين ذهبوا كان هذا

من قبل سنين وسنين بل كانوا يزيدون على المليون وما حالها الآن ، أين ذهبوا ؟ أنحن نتكاثر عدداً أم نضمحل؟ علمي علمك .. قتلهم الوباء الفتاك ماترك فيهم فضلة ولا فردا مسح كل الاصفار من على يمين المليون .. ألم تسمع بمن يناديك بصفر على الشمال ؟ أنزيد عـدداً رباه أم نحن الى اضمحلال وتلاش ؟

مدينتي ذات السور القديم والتاريخ الترابي اللون ، السور المشرف في شموخ على النيل الخالد .. لفرط حبهم لهذه البقعة أمسى الناس يجلسون حولها بالليل،ويشربون وآخرون يقصـــدون النيل عندهـا ينشدون البركة والاخصاب .. أولئك العرسان . ولو كانت هناك بركة لامتلأت المدينة ـ أمدرمان ـ بالصبيان والبنات ، كانوا يقدمون للنيل أجمل الفتيات طالبين الى مائه أن يفيض بالخير كل عام وأن يغمر الأرض فيما حوله بالزرع والنبات ونحن الآن من بعـد هـذي السنين ، نصـلي من حوله ونطوف ، كان في امدرمان حشد كبير يحيا وفتك بـه

الوباء ، رباه أنزيـد عدداً أم نحن صائرون الى تـلاش واضمحلال ؟

(أضربتم عن الطعام ؟؟ لماذا أضربتم عن الطعام ؟ ألأنه رديء أم لماذا ؟) قال الأهل من الآباء والأمهـات والأعمام والأخوال ولكنهم اقتنعوا أو أظهروا شيئاً من الاقتناع حين انتقلت المعركة ذاتها الى أمدرمان، وفاضت الشوارع بعد صلاة الجمعة بالشباب الهاتف بصوت كأنه إرزام الرعد . ان كان الصغار يحسون بوجود الاستعمار فكيف بالكبـار ؟ « يسقط .. يسقط .. يسقط » سـد الأفق الهتاف ؟ بعد أن قال الامام : السلام عليكم الصدى في الجامع هتاف .. « هـذا بيت الله » قال رجـل مسن آخر وما الخبر .. هب أنه بيت الله .. أيرضى الله أن يحكمنا الانجليز وأحلافهم من أهل البلاد .. « قل ياشيخ عبد الدائم يا أيها الامام أهناك نص في القرآن يقـول بأن نقبل الذل والهوان ؟ » وصمت عبد الدائم ـ الشيخ ـ وما قال كلمة .. ومن ثم علا الهتاف وارتفع غبار أم درمان عاليا من تحت الاقدام ، « يسقط .. يسقط .. يسقط ».

ان لهذه (البقعة) حسنا لاتدركه الأبصار ولاتعرفه الأنفس أو تحس بـه إلا حين تفارقها ، في اليوم الذي طرت فيه لطلب العلم ـ ولكن ليس بالصين ـ بكيت ، بكيت ، بكيت ومكثت في بلاد الطير العجمي زمانا ، كنت أعامل الوجوه والناس بقـدر ماتذكرني الوجوه والناس بالوطن .. هذا يشبه فلاناً في شكله ولكنه يفقد روح الدعابة وهو ليس كصاحبي ذاك الذي تركتـه في أمدرمان في سوق أمدرمان ،في قلب السوق في أمدرمان وتلك تذكرني بها .. بالعينين وبالشعر الفاحم ، والمشية والرقة وبهذا وذاك ·· ولكنها تبعد عني رغم القرب ، وما قلت فيها كلاما كما قلت في صاحبتك تلك التي بالوطن. وهذا الوجه هاهنا ألا يستحق شيئاً من الكلام ؟ رغـم ودها ووعدها ومطالها ، أليس هـذا هو مايثير الشعر والكلام المنثور ؟

حقاً بيوتها الصغيرة لاتمنـح إحساساً بالراحة لأنهـا صغيرة وبيوت المدينة في الغربة أيضاً صغيرة ولكنهـا نظيفة .. نسيقة ذوات بهاء ورونق ·· وأنت اليوم تربي

في نفسك ألفة وأي ألفة أيغنيك هذا عن بلدتك أعلم أن هذه ألفة وذلك حب ·· شتان مابين الألفـة والحب . ومدينة كهذه لاتمنح شيئاً من هذا الاحساس ·

وعدت ليلة عدت ··

كانت تحتك باضوائها بساطاً من الضوء .. لفحـك حرها وغبارها ، ياكم تشتاقاليهما : الحر والغبار،وهناك تفزعك النظافة في كل شيء .. لكم تغيرت ولم تتغير هي حتى الحجارة في زقاقكم هي الحجارة ، وروث البهائم على طريق السوق كان روث البهائم ، وصياح الأطفال في الصباح هو نفسه ، النغمة ذاتها لم تتبدل في شيء .

وتحس من بعد استقرارك من بعد العودة أنك تشتاق الى المدينة التي ألفت في الغربة مرات ومرات . وتتتبع أخبارها وقد سمعت أن الزلزال قد فتك بها ودمر بيوتها (وفعل وترك) .

الزلزال كما كان الوباء هنـا من سنين وسنين ···

والزلزال يصيب المتـاع والبيوت والأنفس ، من يقيني زلزال الروح والنفوس ؟ وهل أصاب مدينتك أيها الجعلي

وكيف تقضي يومك ؟ خنقا ؟ من يعصمك من زلزال الروح والنفس ومن أدراك ، أيها الجعلي كيف تقضي يومك بل أيامك •

كان السور عند النيل درعاً طينياً في وجه الفاتحين• ولفرط جبهم له صار الناس يتجمعون من حوله يشربون ويسمرون ويغرقون أيام الخنق في الخمر على مرأى من النيل وآخرون ينزلون الى النيل طالبين البركة والاخصاب ليزيد عددهم •• رباه أنحن نزيد ونتكاثر أم نضمحل ونتلاشى ؟

رسالة إلى جميني آه...

كتبت لك هذا الخطاب في ذهني مرات ، مسحته ، أعدت كتابته ، مسحته ثم أعدت كتابته وألـح علي ، صرت أنطقه لنفسي نطقاً ، وأهمسه لنفسي همساً ، وقد كنت أظن قبل اليوم أن آثار الجرح القديم قد انمحت ، وأن بقايا الأوصاب قد عفى عليها الزمن ، وأني أخـذت نفسي بشدة لم تعتد عليها نفسي ، كل هـذا لأني أريد أن أجعل نفسي عائشاً في الواقع وليس من حوله .

تلقيت رسالتك ، أحسست أنها ـ الرسالة ـ لفرط ماسافرت في الجو ، عبر الأقطار والأنهـار والبحـار : منهكة،وأنها متعبةوأنها تنتظر ملهوفة أن أفضهافتحكي لي رسالتها ، وتتمزق بين أصابعي شهيدة . وأخذتهـا باهتمام ، فأنا دائماً أحافظ على رسائلك ، ولاأقرؤها إلا في البيت حين أكون وحدي، أنا والرسالة والسماء والارض التي من موضعي عليها أرى السماء وماعليها .

في ذاك اليوم كان في السماء غبار كثيف ، بدأ بلون ترابي ؛وصار إلى ستة ألوان حين بلـغ أشده .. وقرأت ثم قرأت .. ولم يكن هناك شيء كثير فيقرأ : بطاقـة دعوة لزواجك ! ولأول مرة أعرف أن اسمك الـكامل هو (جيني آن) ، إننا نتعلم كل يوم شيئاً جديداً ، ولهذا وحده يمكن لنا أن نستمر في الحياة .

عزيزتي جيني آن ...

أذكرها ، الليلة الممطرة ، كان المطر عنيفاً ، وكان ماؤه بارداً ، وكنت أرتجف منهما : البرد والليل . فـأنا لا أحب الليل كثيراً ، لأنه من صلب الخوف والحزن ، وقـد يخيل لي أحياناً أن ظلامه لن يرتفـع عن السماء والأرض ، وأن الدنيا كلها تموت وتفنى وأن وأن وأن .

نعم إني أذكرها الليلة الممطرة ... والماء السماوي البارد يغسل كل شيء ، وأنا أسـير تحت رحمته بارداً وساخناً ، بارداً باثر مياهه وساخناً بالامل في أن ألقاك ، وهذا الاحساس البارد والساخن هو الذي مكنني أن أسير وأسـير ، وأن أصعد السلم بدرجاته وأنا ألهث . شبح

أسود في مطر غزير ، والناس احتمت ببيوتها ، وأنا كما تعلمين أكره المطر ـ أقول لك الحق : أنا أكره الفصول جميعاً ! في مثل هذا الجو تمتزج ألوان الناس يمسي الاسود بلاسواد ، والأبيض بلابياض ، ويبقى الانسان الحقيقة، العظم لا لون له والجلد لا لون له . اللون الاحساس والعاطفة والحب والبغض والانفعال. سرنا تحت المظلة ـ أنت وأنا ـ روح تحتمي بروح، والماء المتساقط يسقط علينا لسعة برودته تؤثر فيك وفيَّ بذات القدر . قلت لك إني أكره المطر ؟ كاذب أنا ، فاللحظة أعشق المطر أحبه .

وما جدوى أن نسير معاً ، ونركض معاً ، ونلهث معاً ، ونهرول ونخاف معاً ، ونحب ذات الأشياء : فريق (بوسطن) لكرة السلة وفريق (الدودجرز)للبيسبول وسير (لورانس اوليفييه) ، و (ايللافيتزجرالد) وكونشيرتو البيانو الرابع والعشرين لموتسارت ، وموتسارت كله ، جميعه ، كل ماكتب وأبدع وخلق .

لماذا هذه الاشياء بالتحديد ؟ الآن أعرف لماذا ؟ فريق

بوسطن لم يهزم ، ولورانس اوليفييه على عرش العروش في القمة ، وايللافيتزجرالد صوت الملائكة في صلوات السماء ، وصوت المحزونين في مزارع القطن ، وآهات المستجيرين من العذاب في سجن (سنق سنق) و (سان كونتين) . لماذا موتسارت ؟ لأنه انتصر برغم أنه مات في الخامسة والثلاثين ، وأبدع في الفن الموسيقي آيات رائعات .

ونحن مانحن ؟ ـ أنت وأنا ـ هزمنا قبل أن نبدأ ، أجل هزمنا قبل أن نبدأ . هزمنا يوم اعترفنا ان المجتمع هناك يكره أن يرى فتاة بيضاء وفتى أسود ، وخضعنا له ، كيف خضعنا له ؟ خضعنا له لأننا لم نتحداه . تقولين « في الجنوب الامريكي نضرب ونعذب وقبلها بسنين ليست بعيدة تشنق أنت على شجرة .. ولكن الغرب منافق يبتسم بالرغم عنه ،يدعي أنه يبارك العلاقة ،وهو في الواقع يلعنها ويكره لها أن تستمر .. أترى الفرق الآن ؟ » .

وإني لا أرى فرقاً بين الغرب والجنوب ، فالنهاية

واحدة كما ترين ، فالحب يحيا بالحرية ، يتنفس بالحرية ، ينمو بالحرية ، ولكنه ههنا في الغرب أم هناك في الجنوب يموت باللعنات والنظرات والمشانق . لايهم مطلقاً أبـداً لايهم .فالذي يموت هو الحب ، باللعنات يموت ، كما يقضي بالمشانق .

الآن عرفت، عرفت، عرفت، لماذا انهزمنا ،وحملت أنا حقائبي وسرت إلى أبعد مما تتصورين ، نزلت بلدي في أفريقيا، فالليل المظلم من حولي الليلة ، نهار ساطع الشمس في كاليفورنيا ..وعلى الشاطىء الرملي في (سانتامونيكا) والقهوة والشاي في (القولدن كراون) . وألف ألف شيء .

حملت حقائبي أنا ثم رحلت ، أنت تعلمين أن القمر جميل جداً على الشاطىء الرملي في سانتامونيكا ، ولكنه الليلة في بلدي غير بازغ ، فأي تعاسة هذه ! وأي حـظ ذاك الذي جعـل بيننا ألوف الاميال من الصحارى والجبال والوديان والبحار !

مبروك جيني آن .. عزيزتي : جميل جداً أن تختاري

زوجاً من أهلك ولونك ، جميل أن تصلي إلى قرار في موضوع ما . لأول مرة أكتب لك خطاباً قصيراً وأقطع علاقتي بك .

وصبرت صبرت صبرت ،ولكني تذكرتك اللحظة، الآن ، الليلة ، لماذا ! ألأني استمعت إلى كونشيرتو البيانو الرابع والعشرين لموتسارت ! أم لأني شعرت أن الهزيمة كانت أكبر مني ومنك... ربما ولكني قررت أن أكتب إليك . انسان يكتب لانسان .

الطوابع على المظروف سوداء ، اذن فلون الهزيمة لم ينهزم بعد ، ولهذا أيضاً مزقت كتابي إليك وأعدت كتابته في ذهني مرات ،قرأته لنفسي وسيكون مسرحه الذهن ولن يسافر إليك فيشقى بغربته وتشقين به والســـلام .

للأرض والملهمات ...

حين وصلت بيتي بعد منتصف الليل ، سمعت ديكاً يصفق بجناحيه ويصيح ، وتبعه آخر ثم ثالث ، وإن كانت الديكة تبدأ بالصياح لتعلن عن مقدم الصباح كما يقولون فاعلم إذن أن الصباح عند الديكة أمر نسبي وكذا الحق والباطل عندنا .. ولكني رقدت على سريري وأرقت .

كاتب ناشىء قابل أرنست همنجواي مرة وقال الكاتب الناشىء فيما قال أنه لم يارق مرة في حياته ، فهو ينام مرتاحاً ، أي وقت يشاء .. ومن هنا فقط حكم عليه همنجواي بانه غير فنان ، ذلك أن همنجواي يؤمن أن الأرق شيء طبيعي للفنان ، ملازمه ، ولاأستطيع الحكم بصحة رأي همنجواي ، فللرجل مقاييس ومعايير يطبقها ، وله الحق في هذا وله العذر . ولكن إن كان الأرق يصنع الفن والفنانين فيمكن لكثير منا أن يصبحوا

أعظم الفنانين ٠٠ لأنهم ينامون قليلاً جداً ، ويسمعون صياح الديكة كثيراً فيما تظن أنه الصباح ، وقد تخطىء الديكة وقد تصيب وربما كان الحق أيضاً نسبياً وكذا الباطل ٠

تقلبت على فراشي بلانوم ليلة كاملة من قبل ليلتين٠ كان الجو حاراً وبارداً .. وكان الناموس نشطاً .. ولم أنم .. إن الارق شيء رهيب .. والأرق إحساس ولعل أسوأ مافيه ـ ذلك الأرق ـ أنه يدفعك لمراقبة أشياء تعمل فينا ونقبلها بداهة ٠٠ مثلاً تجد أنك تحصي دقات قلبك ، وإن أنت أمعنت التفكير فيها علت وزادت وأسرعت ، يجعلك الأرق تراقب أنفاسك في طلوعها وهبوطها . وإن أنت فعلت هذا فان أول مايغمرك سيكون الاحساس أن أنفاسك سوف تتوقف عن الصعود والهبوط ٠

كره رجل الحياة في لحظة يائسة ، وجعل يشكو سوء حاله للناس ،وكان من بين الذين أعلمهم بتذمره وشكواه رجل متدين ، متوكل على الله مؤمن به وبالقضاءوالقدر .

فقال الرجل«يافلان احمدربكعلى النفس الطالعوالنازل» فرد الرجل اليائس قائلا « ماهو الحصان بتنفس . يوم واحد ماسمعته بحمد الله . »

طلوع الانفاس وهبوطها صفة تجمع بين الحصان والانسان ، والحصان حيوان جميل ، حسن الهيئة ، والانسان فيه الزين والشين ، وفيه من الصفات الطيب والخبيث ، ولكنه ـ أي الحصان ـ يجتمع مع الانسان في نعمة التنفس والحصان لايشكر خالقه على أنفاسه الصاعدة والهابطة وكيف نطالب الانسان بالشكر والحمد هذه وجهة نظر اليائس : صاحبنا . ليلة أرقت فيها من قبل ليلتين . كان الجو حاراً وكان بارداً أو هو بين بارد وحار في داخل الحجرات ،بارد خارجها ، وهذا الموقف الوسط هو شر الأمور .. والفضيلة ليست (وسطا بين طرفين نقيضين مذمومين) كما قال الحكماء القدماء . عذبتني (خاطفة اللونين) ، ليست بيضاء ولاهي سوداء أم هي سودانية اللون !

أرقت ليلة من قبل ليلتين . (خاطفة اللونين) ،

وتقول فيها وعنها ، يبقى الشعر والنثر خالدين وتموت الملهمات ..تشيخ الملهمات .. أين (مي) التي ذكر ديارها (ذو الرمة) الشاعر .. وأين وأين .. وأين هي التي ألهمت صلاح أحمد ابراهيم (هدية) (لك ياذات عيون تنبض بالانسانية) الشعر يبقى وتموت الملهمات تشيخ الملهمات (خاطفة اللونين) أرقتك ليلة من قبل ليلتين .

كنت مشغولاً بالنهار وبالليل حتى انتصف،وجئت إلى البيت ، ظننت ـ لفرط انهاكي ـ أني سانام نوماً عميقاً، ولكن هذا لم يحدث .. تقلبت يميناً وشمالاً .. كان الظلام شاملا وغامرا (افتح عينيك في الظلمة ، وابدأ بالعد : واحد ، اثنين ، مائة ، مليون .. فيزورك النوم)قرأت هذا مرة ولم يزرني نوم .. كذب الكاتبون وان صدقوا. لم أنم ، لم أنم ، ولم أنم .. أرقت ، جلست على السرير .. أحسست للحظة أنني أسمع شيئاً يرتطم بالأرض ..لص أم كلب .. أم قطة ! ..

وكيف لايكون لصاً ! .. إن أزقة أم درمان تغري بالسرقة ، فهي ضيقة .. متعرجة ومظلمة .. وبخاصة

هذا الذي أسكنه ... كنا نسميه ونحن صغار (زقاق الشيطان) ولايمنحك من بعد أن يهبط المساء إحساساً بالطمانينة بل هو دائماًيبعث على الخوف ويشعرك بظلاله القاتمة ماثلة حتى حين يكون القمر بازغاً، تحس دائماً أن شخصاً ما يتعقبك .. يريد أن ينال منك .. يغدر بك.. دائماً من ورائك يمسك مدية أو خنجراً ..

أحسست للحظة أنني أسمع شيئاً يرتطم بالأرض .. لص أم كلب أم قطة ؟ .. ربك العليم .. أكبر الظن أنه لص .. وكيف لا يكون لصاً وأزقة أم درمان تغري بالسرقة ، زاد خوفي ليلة أن رأيت أمامي شرطياً ،لأول مرة يأتي إلى مجاهل أزقتنا شرطي ، أخافني الشرطي، أفزعني الشرطي .. لأن وجوده أمر نادر الحدوث ، (عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى .. وصوت شرطي فكدت أطير) أرهبني الشرطي بظهوره .. وكيف لا أتذكر ليلة أن أحاطوا بالشوارع وضربونا بالسياط وطاردونا حتى الجامعة وفرضوا علينا الحصار ثلاثة أيام .. وكيف تنسى ؟ ..

لص أم كلب أم قطة ؟ ربك هو العليم .. المهم سمعت شيئاً يرتطم بالأرض، جلست على السرير .. قلنا إن أزقة أم درمان تغري بالسرقة ، وهذا الزقاق من بين الازقة بالتخصيص أشدها إغراء .

لابد وأنه لص .. لو أضأت المصباح هرب .. وماذا إن لم يهرب وليس معك سلاح ؟ وهل كل لص .. لص ؟ وهل كل من يسرق لص ؟ سمعنا عن اللـص الظريف ، وعن اللـص الشريف .. وعن صعاليـك العرب وعن (روبن هود) وجميعهم يسرق الاغنياء ليهب الفقراء ماغنم .. وهناك (بيلي ذه كيد) الذي كان مثلهم ..فهل صاحبك لـص ظريف أم هو لص شريف أم هو لـص يسرق ليعيش . ؟ ..

أنا على السرير جالس .. ليس هناك لص ولا كلب ولا قطة .. هـــذه من أخيلة الأرق .. عد إلى فراشك واستلق .. افتح عينيك ، اغمض عينيك ، الأرق .. الأرق .. ثمة ضربات عالية تصدر من القلب .. من الذي أرقك ؟ التعب أم القلب أم (خاطفة اللونين) ؟ آه ..

البعيدة رغم قربها، القريبة رغم بعدها .. تموت الملهمات. تشيخ الملهمات .. ويبقى الشعر والنثر ، وإلا فأين (مي) ذي الرمة ، وبثينة جميل و (نعيم الدنيا) صاحبة عمر البنا ، وذات العيون النابضة بالانسانية في (هدية) صلاح ؟ .

أرقت ليلة بطولها من قبل ليلتين .. جلست على السرير ولم تنم ، بل طافت بذهنك أم درمان والشوارع التي تسير فيها وتغشاها .. وحتى اللافتات (مخازن اشراقة) و (أولاد بقوانجي موبلجي) و (محلات كليوباترة) التي لاتمت بصلة لا إلى الملكة ولا للبطانسة ولا حتى لانطونيو ولالقيصر ..

أرقت ليلة بطولها من قبل ليلتين .. (خاطفة اللونين) أرقتك ؟ تموت الملهمات .. تشيخ الملهمات .. ويبقى الشعر والنثر والكلام الجميل .

وهل أبصر أعمى المعرّة ؟!!

(وهل أبصر أعمى المعرة ؟)[1] كلا ونحن لم نبصر أيضاً ، فنعمة الابصار ـ إن كانت هي حقاً من النعم ـ درجات ، بعضها في العيون ، وبعضها في القلوب التي في الصدور ، ومن الناس من نال من هذه وتلك والمفروض أن يكونوا أحسن حالاً ، وأريح بالاً ، ولكن يبدو أن كثرة الابصار التي في العيون ، وفي القلوب التي في الصدور، تريك أكثر مما تود أن ترى ، فيسقمك النظر وكان الاجدر أن يسعدك .

كنت أقرأ سيرة أعمى المعرة ذات ليلة ممطرة ، سجنتني الامطار في البيت فجعلت أقرأ سيرة أبي العلاء المعري . وهي سيرة عريضة وطويلة وذات أبعاد أسطورية ، لا أول لها ولا آخر .. وأكثر الروايات التي رويت حوله وعنه وفيه ، تحس أن الذين كتبوها

---

(١) التعبير مأخوذ من قصيدة للشاعر محمد المهدي المجذوب

وسردوها انماقصدوا إلىتصوير تلكالعبقرية الاسطورية بما لايقبله العقل في هذا الزمان الحديث ، على الأقلبمقدار السنين .. وأنهم بذلك قد أساؤوا إلى أفهامنا ـ أولئك النقاد القدامى ، عفا الله عنهم ـ وأساؤوا إلى سـيرة الشاعر العبقري من حيث قصدوا الاشادة به . وفي شعر أبي العلاء ومايحمله ذلك الشعر من معان حسنة أصيلة مايكفي لاقناعنا بموهبته . تصور يقول النقاد القدماء الحكماء ، أنه حفظ كذا وكذا ، وسرد على الناس حديثاً باللغة الاذربية أو بلغة الطير لا أدري . وهو لايعرف تلك اللغة .

ما الذيجعلك تعود إلى كلام القدماء ،هل هوفصل الأمطار ؟ أم المطر الذي يهطل في الليل دائمـاً ، ويقطع النوم اللذيـذ والحلم اللذيذ ، والحياة اللذيذة تلك الـتي نحياها بالطول والعرض في الاحلام . بينما لايتحقق شيء في الواقـع سوى الألم . ذاك الذي نحس بـه كلما فتحنا عيوننا . والعين البصيرة ، والابصار الذي في العيون ، أم الذي في القلوب التي في الصـدور ! كل هذه النعم إن

خلقت فيك وإن أنت قـد أعملتها في الكائنات والناس صدمت بما ترى ولم تطمع فيما لم تر .

فصل الأمطار ، تعبير خشن ولكنه أقرب إلى الواقع والعـلم وأنا بما أني اللحظة لست عالمـاً ولا أنا بالواقعي أفضل لفظ (الخريف) لأنه كلمة واحدة ، ولأنها ـ أي تلك الكلمة الواحدة ـ ذات إيقاع موسيقي . ولتعلم أن الخريف بالتعبير الدقيق عند أهل الغرب من العارفـين وغـير العارفين هو مطلع أغـبر حزين لفصل الشتاء الموحش ، وقد يكون الخريف أشد وحشة وأعمق حزناً من الشتاء نفسه. ففيه تبدأ الأشجار فتتعرى عن أوراقها وتمسي مثل أعواد المشانق. وفيه ـ أي الخريف الافرنجي ـ تهب ريح تلسع تنبئك أن الفصل الرهيب مقبل لامحالة. وإن كان الأمر مقارنـة بـين هذا اللفظ وذاك فاعلم أن التطابق كامل فيما يمنحه الفصل المرء من إحساس . فمطر الليل موحش ، والاحتماء بالغرفة المغلقة والأسقف سجن بالضرورة . إن أفنية البيوت والسموات بأنجمها ونسائم الصيف الجميلة ، لتعجز أحياناً أن تمنحك الاحساس بالحرية.

فصل الأمطار . أم هو الخريف . أم هو السجن في الحجرات ذات السقوف . لا تظلمه بـل ان فيه مشابهاً من الربيـع الفصل الضائع في بـــلدي . ففيه ـ فصل الأمطار، الخريف ـ تتصنف الأشجار، وتتدثر بأوراقها الخضراء الكثيفة ولا تتعرى . ربما كان هو فصل الماء والحياة،ولكن الحرية تموت فيه ، وينتعش كل ماعداها، وينتظم الناموس جيوشاً هدفها لحوم البشر، ومن الناس من لا يحط البعوض على جسده . يقول أهلنا عن مثل هذا (فلان جلده مر) . أبدل جلدي بجلد مر لو انقطع البعوض بجيوشه المطنة عن زيارتي،أتمنى أن أبدل جلدي مرات قبل يوم القيامة ! أنت يا مدينتي ، أيتها القديمة الشائهة يا ذات الخيران والزبالة والبعوض . أحبك يا مدينتي بكل ما فيك من عذاب والم .

قال ابن العـــديم في (بغية الطلب) إنه قرأ في (روزنامج) « ونزلنا سرمين فاستقبلني القائـــد بها بالاكرام والانعام ، وركب في صحبتي إلى معرة النعمان ، بل مقر الروح والريحان ، بل زهرة العين والجنان ، بل

معـــدن البيان واللسان والرجحان في الأدب والشعر والاتقان ، وعرف عنها ـ يقول القدماء ـ جودة الهواء . أهذا من بعض صفات مدينتي : جودة الهواء ؟ في فصل الأمطار ، الخريف ، تشم رائحة شجر النيم ممزوجة برائحة المراحيض العميقة القديمة (هذا مرحاض عمقه ستة رجال أو سبعة رجـال) يقاس العمق عندنا بالرجال ! أهذي من بعض صفات مدينتي ؟ مقر الروح والريحان ؟

كان في مدينتي ـ أمدرمان ـ ريحان ، كل بيت زرته كان فيه شيء أخضر وذوى من بعد خضرته ، فالأرض اليوم سبخة تعطيك أملاً في البداية فينمو زرعك ولكنه لا يلبث حتى يموت أهي جنـة الله تلك المعرة ؟ أترى بجودة هوائها اشتهرت بين العالمين أم بشعر شاعرها ؟

كل يغني على ليلاه .. وسوف تكون مدينتي ، حين ينبـغ نابغة من أبنائها ، ويأتي بما لم تستطعه الأوائل كما فعل المعري ، ستغدو مشهورة ، وسوف يقول القائلون بمقياس ذلك الزمان المقبل إن هو قد أقبل ذلك الزمان ـ كانت جيدة الهواء ، حسنة المياه ، ملتفة الأشجار ،

دانية القطوف والثمار ، جنة الجنان ، ذات الروح والريحان .

حقاً كان الريحان من بعض ما ينبت فيها ، وكان يثمر عطراً فواحاً .. وكان وكان .. ذهب الريحان وبقي الناموس أم هو البعوض ؟ حتى إذا أقبل الليل ابتدر إلى سلاحه وأوسعنا لسعاً مؤلماً .. وتبدلت جلودنا لتلائمه .

(لدغني الزنبور فاذا هو هي .. فاذا هو إياها) ما الذي يهم ؟ (سيبويه) قضى وكذلك (الكسائي) ، ومن قبل ذلك (غيلان) و (الطرماح) وبقيت منهم السير والعبر.

تعمى العيون ، كما تعمى القلوب التي في الصدور ، كان أبو العلاء مسافراً يقصد بغداد ، وهو راكب جملا ، ومر بشجرة فقيل له : طاطىء رأسك ، ففعل . وأقام ببغداد زماناً ولما عاد واجتاز ذلك الموضع ، وقد قطعت الشجرة طاطأ رأسه فسئل عن ذلك فقال : « ههنا شجرة » فقيل له « ما ههنا شيء » فقال « بلى ». فحفروا ذلك الموضع فوجدوا أصلها . تذبت الأشجار من زمان بعيد حتى على طرق السفر ، الطريق إلى بغداد كان فيه

شجرة . تذكرهـا ذلك المسافر الأعمى ، وهو مقبل من بلدته السورية قاصداً حاضرة العراق . ما الذي يريـد القدماء تحقيقه ؟ بماذا يريدون وصف الرجل ؟ إن شعره يكفي .

في الخريف نفس من الربيـع . هو حياة الأشجـار القديمة وحياة الأشجار غـير القديمة . تتصنف الأشجار فيه تهش له وتبش رغم أنـه كثيراً ما يعبس في وجهها ويحطمها بريحه ومياهه وحشراته. البعوض ، الناموس، وثمة حشرة أخرى تحس بدبيبها على عنقك أو صفحـة خدك ، فتغريك بلمسها حتى إذا فعلت انبعثت من بين أصابعك رائحة لا يمكن وصفها كريهة كريهة . أهذا خير أم لسعة البعوض ؟ لدغني الزنبور فاذا هو هي أو إياها . على مثل هذا الجدل كانت تقوم حضارات تسمو وتنهار.. ويتجادل علماء ، ويموت أحـــدهم وفي نفسه شيء من (حتى) . أهـذا من بعض البذخ الفكري ؟ إن الناس في هـذا الزمان يموتون غماً ، وقد يموتون بلا شيء من (حتى)، يموتون بدون سبب أحياناً .

ما أنبه شانك أيها الـكاتب الضائع في الجيل الضائع ، حين عذبك الجوع وأنت تنتظر مقدم الربيـع . وأعجب بك حين أعلم أنك مثلي تكره المطر جـداً ، خاصة إن استمر بعد ميعاده فصار ضيفاً ثقيلا .. والناس في شوق لمقدم الربيـع ، ألا ما أنبه شانك يا من كتبت تقول (لقد توقعت أن تكون حزيناً في الخريف ، بعض منك يموت كل عام حين تتعرى الأشجار من أوراقها في وجه الريـح والضوء الشتائي البـارد ، ولكن عندما استمر هطول الأمطار حتى آخر مقدم الربيـع أحسست كأن شخصاً ما قد مات بلا سبب في عنفوان الصبا) .

ما الذي حمـل همنجواي إلى باريس ؟ أذاك هو نفس السبب الذي قاد المعري من قبل إلى بغداد ؟ لقـد كانت تلك في الربـع الأول لهـذا القرن العشرين مدينة النور والعلم ، وكانت تلك في قديم الزمان خزانـة الكتب من بين المدن ، وكانت سائر المدن بالنسبة لها قرى صغيرة . ثم أتاها التتار فأحالوا عمرانها خرائب ، ودخل النازيون ـ تتار هذا الزمان ـ باريس وأحالوا نورها ظلامـاً .

وطلب المعرفة سبب يجمع بـين الرجلين على اختلاف الأزمان فهل كان المعري من أهل الجيل الضائع في عصره؟

تهطل الأمطـار في الليل .. وتحيا بهطولها جيوش الذباب والناموس . مدينتي كانت ذات روح وريحان مثل معرة النعمان ، وكان الريحان ينبت فيها ، وكان أخضر فواحاً : الريحان ، تعرف صفاته الطيبات حـين يزنق الصيف وتشتد الحرارة .. ولكنه: الريحان مات في صباه بـلا سبب ، مثل ربيـع همنجواي في باريس ذاك النئي قتلته الأمطار . وهل أبصر أعمى المعرة ؟ لا أدري ولكنه قال ذات مرة في طريق عودته من بغداد (ههنا شجرة) وطاطأ رأسه ! ولم تكن هناك شجرة ، وإنما كان هناك موضع أصلها بعد أن اجتثت، ومن يدري فربما أحرقها الظمأ أو أن ملح الأرض تنكر لها ، مثل قولنا اليوم : كان في بلدتنا ريحان وقتلته الأرض لأنها سبخة، ثم حلت مياه الأمطـار على وجهها ، فأرسلت الأرض من باطنها وظاهرهـا جيش البعوض المطن .. أوسعنا البعوض لدغاً أم لسعاً ؟ .

أجمل الأشياء في الوجود واللا وجود الأحلام ، ففيها تحيا وتتحقق الأمنيات • وفيها يعمى البصر ذاك الذي لا يريك شيئاً غير ما تكره • وما قولك في القلوب التي في الصدور ؟ وهل أبصر أعمى المعرة ؟

المحتوى

الموضوع	الصفحة
الاهـــداء	٣
آه لو عندي بساط الريح	٥
الشرب من كوب خشبي	١٩
مقامة البحر والسماء	٣٣
الهاتف في هدأة الليل	٤١
خواطر رحلة صيف	٥٣
سور عند النيل	٦٧
رسالة إلى جيني آن	٧٩
الأرق والملهيات	٨٧
وهل أبصر أعمى المعرة ؟	٩٩